في الفلسفة

نظرية الوسط في الفضيلة
بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين

بقلم محمد مهدي علام
المفتش بوزارة المعارف وعضو المكتب الفني بها

تمهيد : نظرية أرسطاليس في الفضيلة :

لقد كتب أرسطاليس عن الفضيلة كتابة خلدت على الدهر ؛ ومهما يكن ماقيل في نقدها فإنها جديرة بالدرس والإعجاب . وسنتناول في هذا التمهيد ملخصا وجيزاً لتعريف أرسطو للفضيلة ورأيه في فطريتها ، وفي شروطها . ثم ننتقل إلى الكلام في نظرية الوسط ، معتمدين في تصويرها على كتابة أرسطاليس وشراحه ، ثم ندلي بنقدنا الشخصي للنظرية . وبعد ذلك ننتقل إلى ما كتبه المسلمون في هذه النظرية معقبين عليه برأينا فيه .

تعريف أرسطو للفضيلة :

يعرف أرسطو الفضيلة على النحو الآتي :

فضيلة كل شيء هي ما يُتم حسن استعداده لأداء عمله وتنفيذه على الوجه الأكمل ، كفضيلة العين ، وفضيلة السيف ، وفضيلة الحصان ؛ ففضيلة العين أن تبصر على أكمل وجه ، وفضيلة السيف أن يكون بتارا يقطع على أكمل وجه ، وفضيلة الحصان أن يجري ويحمل فارسه ويقاوم العدو على أكمل وجه ، وفضيلة الإنسان كذلك هي الحالة الخلقية التي تصيره رجلاً صالحاً ، رجلا خيرا بحيث

يؤدى وظيفته فى الحياة على أكملها . (كتاب ٢ باب ٦ فقرات ٢ — ٣)[1]

فطرية الفضيلة :

وهو يرى أن الفضائل ليست طبيعية فينا ، وإلا عجزنا عن تغيير طبائعنا . فالعادة لا تستطيع أن تغير ما هو فطرى : مَثَلُ ذلك مَثَلُ الحجر الذى يهوى بطبيعته إلى أسفل ، فإنه لا يمكن أن يتعود الصعود ولو حاول به المرء ذلك ألف مرة ؛ وكذلك النار فطرتها الصعود بلهبها ، ولا يمكن أن تتجه إلى أسفل ؛ وليس فى الوجود جسم واحد يمكن أن يفقد خاصته التى تلقاها من الفطرة ، ليستبدل بها عادة جديدة (ك ٢ ب ١ ف ٢) .

وهو كما يرى أن الفضائل ليست فينا بالطبع ، يرى كذلك أننا لا نكتسبها على الرغم من الطبع ؛ فالطبع أو الفطرة تجعلنا قابلين لها ، والعادة تنميها وتتمها فينا ؛ فليس لدينا من الفضائل أول الأمر إلا الاستعداد لها ، والقدرة على مزاولتها ، وبعد تلك المزاولة تنتج أفعالها . وشأننا مع الفضائل يخالف شأننا مع الحواس ؛ فنحن لم نكتسب حاسة الإبصار ، ولا حاسة السمع ، بكثرة النظر ، ولا بكثرة السمع ، ولكننا نظرنا وسمعنا ، لأننا خلقنا ومعنا هاتان الحاستان . أما الفضائل فاننا لا نكسبها إلا بعد المرانة والمزاولة شأنها فى ذلك شأن الفنون ؛ فالمرء الذى يزاول صناعة الهندسة يصبح مهندسا ، والرجل الذى يمارس مهنة الموسيقا يضحى موسيقياً ، وكذلك الرجل الذى يقيم العدل يصبح عادلا ، والذى يزاول الحكمة يغدو حكيما ، والذى يتعود الشجاعة يصبح شجاعا . (ك ٢ ب ١ ف ٣ — ٤)

شرط الفضيلة اللذة :

ويشترط أرسطو فى الفضيلة الشعور بالسرور فى مزاولتها ، فيقول :

(١) فى كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس : « Ethica Nicomachea »
وقد أشرنا عقب كل موضوع إلى رقم الكتاب والباب والفقرة ، لأننا لم نتبع الترتيب الأصلى الذى فى كتابة أرسطاليس ، لما فيه أحيانا من استطراد وتكرار وتقديم وتأخير .

إن العلامة الظاهرة التى تكون بها الفضيلة فضيلة ، هى الشعور باللذة ؛ فالإنسان الذى يمتنع عن متع الجسم مرتاحاً لهذا الامتناع ، هو المعتدل أو العفيف ؛ أما المرء الذى لا يجد نفسه تلك اللذات إلا بأسف عليها ، فليس على الحقيقة عفيفا ؛ (١) والإنسان الذى يقتحم الأخطار مسروراً مغتبطا، هو الشجاع ؛ أما الذى يقتحمها مضطربا حزينا فجبان . (٢) من أجل ذلك ينصح أرسطاليس ، بما نصح به أستاذُه أفلاطون : من أنه ينبغى أن يوجه الطفل منذ نعومة أظفاره إلى حسن اختياره مواضع السرور والألم . (ك ٢ ب ٣ ف ١)

ولا شك أنهما على حق ؛ لأن سر النجاح فى الحياة الأخلاقية هو أن يعلم المرء كيف يحسن التلذذ والتألم .

نظرية الوسط :

يرى أرسطاليس أن الفضيلة وسط بين طرفين ؛ فالأمر فى الفضيلة كالحال بالنسبة لقوة البدن والصحة ؛ فالمغالاة فى التمرينات البدنية أو التقصير فيها ، كلاهما يودى بالقوة . وكذلك الشأن فى المأكل والمشرب ؛ فإن الزيادة فى الأطعمة على القدر اللازم ، أو النقص فيها عنه . كلاهما يضعف الصحة ؛ وليس يحفظ الصحة وينميها إلا القدر اللازم الذى هو بين هذين الطرفين . وهذا هو الشأن فى العفة والشجاعة وغيرهما من الفضائل ؛ فالإنسان الذى يخشى كل شىء ، ويفر من كل شىء ، ولا يحتمل شيئا من المكاره ، جبان . كما أن الذى لا يخاف شيئا البتة بل يقتحم جميع الأخطار بلا اكتراث ، متهور . والشجاع هو الذى يتوسط بين هذين الطرفين . كذلك الرجل الذى يستمتع بجميع اللذات لا يجحد نفسه واحدة منها ، فاجر ؛ والذى يتحرج ويتأثم فيتقيها جميعها ، خامد الحس معطل

(١) تدبر المثل العربى : « من العفة ألا تجد » وقول الشاعر العربى :

عفافك عجز ، إنما عفة الفتى إذا عف عن لذاته وهو قادر

وكذلك المثل الإنجليزى : « أن تتخذ من الضرورة فضيلة »

« Making a virtue out of necessity. »

(٢) وتدبر كذلك المثل العربى : « مكره أخاك لا بطل » .

الشعور . والعفيف هو الذى يتوسط بين هذين الطرفين : فالشجاعة والعفة ، كغيرهما من الفضائل ، تضيعان بالإفراط والتفريط . وتتحققان بالوسط . (ك ٢ ب ٢ ف ٦) .

نشأة نظرية الوسط :

أجمع مؤرخو الفلسفة على عزو نظرية الوسط إلى أرسطاليس ، وهم فى ذلك على حق ؛ لأن أرسطو هو أول من تكلم فى الوسط كلاما علميا ، بل هو آخر من قال الكلمة الفاصلة فيه .

غير أن من الإنصاف أن نذكر أن فكرة الوسط سابقة لنظرية الوسط ؛ فليس فى استطاعتنا أن ندعى لأرسطو ابتكار فكرة الوسط ، مهما حق لنا أن ندعى له ابتكار نظرية الوسط . وحسبنا فى التدليل على ذلك أن فكرة التوسط فى الأمور ، وكونها خيرا ، بل كونها أفضل الأحوال ، قد وردت فى كتاب (الجمهورية) لأفلاطون أستاذ أرسطو ، فى المواضع الآتية (١) :

١ — الكتاب الثانى فقرة « ٣٥٩ »

يقول أفلاطون (على لسان غلوكون) فى تحديد طبيعة العدالة وأصلها : « إن الظلم بطبيعته خير ، ولكن احتماله شر ، لأن الشر الناشىء عن احتماله يربو كثيرا على الخير الناجم عن اقترافه ؛ ولذلك بعد أن ظلم الناس بعضهم بعضا زمنا طويلا ، واحتملوا ثقل وقعه على النفوس ، وخبروا كلا من العدالة والظلم — رأوا أن الأفضل أن يتفقوا على ألا يظلموا ولا يُظلموا . هذا منبت الشرائع ، وأصل المعاهدات بين الإنسان وأخيه الإنسان . فزعموا ما أوجبته الشرائع عدلا . كذا يؤكدون أن هذا منشأ العدالة وطبيعتها ؛ فهى حلقة متوسطة بين الأفضل المطلق ، وهو أن يَظلم الناس دون عقوبة . وبين الأسوأ المطلق ، وهو أن يُظلموا دون القدرة على الانتقام ؛ فالعدالة مرغوب فيها لكونها وسطا بين هذين الطرفين . »

(١) اعتمدنا فى ترجمة نصوص الجمهورية هنا وفيما يلى على الترجمات الإنجليزية المنقولة عن النص اليونانى ولا سيما ترجمتى Spens و Jowett

٢ — الكتاب الثانى فقرة « ٣٦٤ »

نقل أفلاطون شعراً لهسيُود يدل على أن الفضيلة قمة صعب مرتقاها ، أما الرذيلة فميدان فسيح يسهل على كل إنسان المرور فيه ، وسيأتى بيان ذلك عند كلام أرسطو على أن الفضيلة ذروة وقمة . وقد ترجمنا فيما يلى شعر هسيود المذكور :

ما أسهل الشر تجنيه بلا تعب ... بابُ الرذيلة باب غير ذى غَلَقِ

طريقها مُرْتقًى سهل الصعود وفى ... أهدافها طَلَق من كل مستبق

أما الفضيلة فالأخطار تكنفها ... دون الوصول إليها نقطةُ الأفق

٣ — الكتاب الرابع فقرة « ٤٢١ »

يقول أفلاطون (على لسان سقراط) وهو بصدد الكلام عن حكام مدينته الفاضلة ، أو فردوسه الأرضى : « أليس خير الأمور الوسط للصناع ؟ فينبغى أن يكون لديهم من المال ما يكفى لشراء أدواتهم ، لا ما يكفى لإترافهم وجعلهم فى غنى عن العمل . أو ليست هذه الحالة خيرا لحكامنا كذلك ؟ فإن كانوا فقراء مدقعين كانوا أذلاء منحطين ، وإن كانوا أثرياء كانوا كسالى مترفين ؛ وما كانوا فى كلتا الحالتين من القانعين . »

٤ — الكتاب الثامن فقرات « ٥٥٧ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ »

ويقول أفلاطون بصدد الكلام فى أنواع الحكومات : « إن كل شكل من أشكال الحكومة يجنح إلى الانحطاط والاندثار ، إذا بولغ فى تطبيق المبدأ الأساسى الذى يقوم عليه : فحكومة الأشراف « الأرستقراطية » لا تلبث أن تتلاشى إن نحن أسرفنا فى تطبيقها فضيقنا دائرة الأشراف وبالغنا فى تحديد الطبقات التى يحق لها أن تتولى الحكم . وكذلك الشأن فى حكومة الشعب « الديمقراطية » ، فإنها بتطرفها فى شعبيتها أو « ديمقراطيتها » تقضى على نفسها ، فالحرية المتطرفة لا يمكن أن تفضى إلا إلى استعباد متطرف ، سواء فى ذلك الدول والأفراد . وإن أوسع حرية لهى التى تمهد السبيل لأذل استبداد وأثقل استعباد . »

٥ — الكتاب العاشر فقرة « ٦١٩ »

ويختتم أفلاطون جمهوريته فى الكتاب العاشر بوصيته عن الحياة الفاضلة فى الدنيا والآخرة فيقول : « فليعرف المرء كيف يختار الوسط ويترك طرفى الإفراط والتفريط ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، لا فى هذه الحياة فحسب بل فى كل ما يتعلق بالحياة الآخرة كذلك ، فذلك هو السبيل الوحيد للسعادة . »

من هذا يتضح لنا جلياً أن « فكرة » الوسط ليست من ابتكار أرسطو ولكنه مع ذلك صاحب « نظرية » الوسط غير مدافع .

معنى الوسط :

يقول أرسطاليس : إن هذا الوسط ، الذى هو الفضيلة ، ليس واحداً بالقياس إلى جميع الناس ، وليس هذا التوسط توسطا رياضيا ، بل هو توسط إضافى . لأنه إذا كانت عشرة أرطال من الطعام بالنسبة إلى شخص بعينه أكثر مما ينبغى ورطلان من الطعام بالنسبة له كذلك ، أقل مما ينبغى ، وكانت ستة أرطال هى الوسط المطلوب له — فليس معنى هذا أن ستة أرطال من الطعام هى مقدار صالح لكل شخص من الأشخاص ، فقد تصل بإنسان إلى حد التخمة ، على حين قد تنزل بآخر إلى حد المخمصة .

كذلك الوسط الأخلاقى ليس مطلقا ، وليس واحداً بالنسبة لجميع الأفراد . بل على كل عاقل أن يبحث عن الوسط الملائم له ، فإن ذلك الوسط القويم السعيد هو الذى يصل به إلى درجة الفضيلة .

من أجل ذلك إذا أريد مدح شىء متقن قيل إنه لا يمكن أن يزاد عليه شىء ، ولا ينقص منه شىء . كأنما قيل : إذا كان الإفراط والتفريط يضيّعان الكمال ، فإن الوسط وحده هو الذى يحققه .

وقس على ذلك الخوف ، والإقدام ، والرغبة ، والكره ، والغضب ، والرحمة ، ففى كل هذه الوجدانات قدر أكثر من الوسط وقدر أقل منه . وكلا الطرفين

قبيح . أما أن يعرف المرء الشعور بهذه الوجدانات على ماينبغى ، تبعاً للظروف وتبعاً للأشياء ، وتبعاً للأشخاص ، وتبعاً للعلة ، وأن يعرف القدر المطلوب الخ .. فهذا هو الوسط القويم ، هو الكمال الذى لا يتحقق إلا فى الفضيلة . (ك٢ب٦ف٥-١١)

الفضيلة قمة وطرف :

ويرى أرسطو أن الفضيلة مرقى صعب ، ففى استطاعة المرء أن يسىء السلوك بألف طريقة ، على حين أنه لا يستطيع أن يحسن السلوك إلا بطريقة واحدة(١) أليس من أسهل الأشياء أن نخطىء الهدف ومن أصعب الأمور أن نصيبه ؟ (ك ٢ ب ٦ ف ١٤ — ١٥) فما أشبه الفضيلة التى هى الوسط ببؤرة الضوء ، والرذيلة التى هى ماعدا الوسط بحاشية الضوء التى لا حد لها !

وبذلك يقول أرسطو : إن الفضيلة — التى هى وسط بين طرفين — قمة ، وطرف ، ونهاية ، باعتبار آخر ؛ هو اعتبار أنها أعلى درجات الكمال والخير (ك ٢ ب ٦ ف ١٦) - ويمكننا أن نرمز إلى فكرتيه عن الفضيلة بالرسمين الآتيين :

تصوير الفضيلة وسطا بين طرفين

تصوير الفضيلة قمة

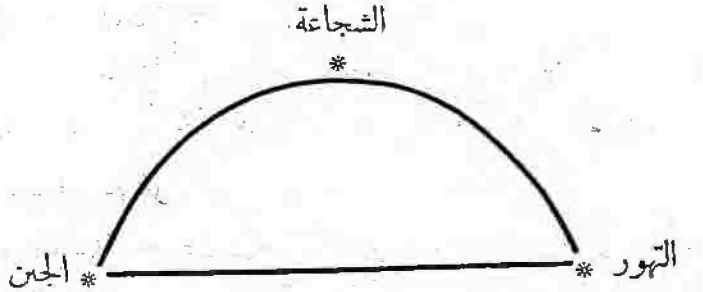

(١) راجع شعر هسيود الذى اقتبسه أفلاطون وترجمناه فى تاريخ نشأة هذه النظرية .

وبذلك تكون الفضيلة فى ذروة لا يصل اليها إلا القليل المجاهدون لأنها تصبح كمركز الدائرة ليس العثور عليه ميسوراً لجميع الناس . فبذل المال سرفا أمر ميسور لكل إنسان ، وحبس المال شحاً أمر كذلك لا يكلفنا جهداً ولا مشقة . ولكن التميز بين من يجب أن تمنح ، ومن يجب أن تمنع ، وبين المقدار الذى ينبغى أن تبذل ، والمقدار الذى ينبغى أن تحفظ ، وبين الوقت الذى تبذل فيه والوقت الذى تحبس فيه ـ كل ذلك عمل شاق ليس من السهل معرفته . من أجل ذلك كان الخير شيئاً نادراً وممدوحاً وجميلا . (ك ٢ ب ٩ ف ١ — ٢)

الشرور الذاتية :

وإذا تأملنا فى هذه النظرية ألفينا أن بعض الشرور لا تخضع لها ، فليس لها طرفان بينهما وسط هو الفضيلة . ولقد أدرك ذلك أرسطو فقال : إن من الشرور شروراً ذاتية لا صلة لنظرية الوسط بها . فهى فى أية درجة من درجاتها . وعلى أية صورة من صورها شرور مرذولة ، فمن ذلك الشماتة ، والحسد ، والزنا ، والسرقة ، والقتل . فالقتل جريمة مرذولة فى أى وقت ، وأى مكان ، ولأى شخص ، وبأية آلة ، ولأى سبب[1] فحكم هذه الشرور حكم الرذائل التى هى أطراف ، بمعنى أنه لا يصح أن يكون لها إفراط ولا تفريط ، وإلا لزم أن يكون للإفراط إفراط وللتفريط تفريط . (ك ٢ ب ٦ ف ١٧ — ١٩)

الفضائل التى طبق عليها أرسطو نظريته :

وقد طبق أرستطاليس نظرية الوسط على الفضائل التى نجمعها فى الجدول الآتى :

---

(١) إلا القصاص طبعا ، على أنه لا يسمى عادة قتلا . ولقد يكون للقتل ظروف مخففة ، كما يكون للسرقة والزنا ـ زنا المحصن وغير المحصن ـ ولكنه يظل قتلا ، وسرقة ، وزنا ، يحمل عبء الرذيلة ويتلون بلونها البغيض .

الإفراط (رذيلة)	الوسط (فضيلة)	التفريط (رذيلة)
التهور	الشجاعة	الجبن
الفجور	العفة أو الاعتدال	خمود اللذات أو عدم الحس
الإسراف أو السفه	السخاء أو الكرم	البخل
الوقاحة أو الغطرسة	الكرامة أو عزة النفس	الذلة أو ضعة النفس
الشراسة	الحلم	الفتور أو البلادة
التنفج أو المبالغة	الصدق	التحفظ أو التعمية
السخرية	البشاشة	الفظاظة
التملق	الصداقة	التشاكس أو الشكس
التبجح أو السلاطة(١)	الحياء	الخفر(٢)
حسد الغير على سعادته (أو الظلم)	العدل(٣)	الشماتة فى مصيبة الغير (أو الانظلام)

* * *

الفرق بين هذه الفضائل (الأوساط) والرذائل (الأطراف) :

ويرى أرسطاليس أن هذه الصفات الثلاثة — الفضيلة وطرفيها — متضادة بعضها مع بعض : فالطرفان مضادان للوسط ، ويضاد أحدهما الآخر ؛ والوسط مضاد لكل من الطرفين . وكما أن المتوسط الحسابى إذا قرن بالحد الأصغر كان أكبر منه وإذا قرن بالحد الأكبر كان أصغر منه — فكذلك الفضائل أو

(١) يرى ابن مسكويه تسمية هذا الطرف « الوقاحة »

(٢) ويرى كذلك تسمية هذا الطرف « الخرق » (بفتحتين) وهو فى اللغة : الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يبهت فاتحا عينيه ينظر ، وأن يفرق الغزال فيعجز عن النهوض ، والطائر فلا يقدر على الطيران .

(٣) الرذيلتان الناشئتان عن تجاوز فضيلة العدل هما : حسد الغير على سعادته ، والشماتة بمصيبة الغير . وهذا رأى أرسطو . أما الظلم والانظلام فرأى أفلاطون وهو أوجه من رأى أرسطو .

الأوساط الأخلاقية فى نسبتها إلى حالات التفريط تظهر إفراطات ، وفى نسبتها إلى حالات الافراطات تظهر تفريطا ، وعلى هذا فالرجل الشجاع يظهر متهوراً إذا قرن بالجبان ، ويبدو إلى جانب المتهور جبانا ، وكذلك المعتدل أو العفيف يبدو فاجراً إذا قرن بالخامد الذى لا يثيره مثير ويبدو خامداً إذا قرن بالفاجر . والسخى يبدو مسرفا بالإضافة إلى البخيل ، وبخيلا بالإضافة إلى المسرف . وكذلك الطرفان يقذف كل منهما بالوسط إلى الآخر ، فالجبان يسمى الشجاع متهوراً ، والمتهور يسميه جبانا ، وكذلك الشأن فى جميع الأوساط والأطراف .

على أن هناك أطرافا لها بعض المشابهة بالوسط ، فالتهور به شبه بالشجاعة ، والسرف شبه بالسخاء . أما التضاد الأعظم فهو بين الأطراف بعضها لبعض .

وفى نسبة الطرفين إلى الوسط تارة يكون التفريط هو الأكثر تضاداً ، وتارة يكون الإفراط هو الأكثر تضاداً ، فأكثر الرذيلتين تضاداً مع الشجاعة ليس التهور الذى هو الإفراط ، بل الجبن الذى هو التفريط ، والأمر على عكس ذلك بالقياس إلى العفة ، فان أبعد الطرفين منها ليس خمود اللذات الذى هو حد التفريط ، بل هو الفجور الذى هو حد الافراط . (ك ٢ ب ٨ ف ١ — ٦)

ويشكو أرسطو من أن اللغة الإغريقية لم تشتمل على كلمات تدل على بعض الأطراف كخمود اللذات ، وكالفتور ؛ وسبب ذلك أن هذه الصفات بعيدة كل البعد عن ميل الإنسان ؛ فلم تحفز الحاجةُ اللغةَ لوضع ألفاظ لها . (ك ٢ ب ٧ ف ١١) ونحن نشكو هذة الشكوى عينها وللسبب عينه فى لغتنا العربية .

نصيحة أرسطاليس :

وينصح أرسطو بأن يحمل المرء نفسه على الجهة المضادة لميوله ؛ فإنا بابتعادنا عن الخطيئة التى نخشاها نقف فى الوسط . فالخطر الذى ينبغى اتقاؤه دائما هو الطرف الذى يرضى أهواءنا ، هو اللذة ؛ (١) ويجب أن يكون شعورنا نحو اللذة هو

(١) وفى ذلك يقول أبو بكر رضى الله عنه : « خير الخصلتين لك أبغضهما إليك » ويقول ابن المقفع « وعلى العاقل أن يعرف أن الرأى والهوى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويف الرأى وإسعاف الهوى فيخالف ذلك ويلتمس أن لا يزال هواه

ما كان يشعر به شيوخ طروادة فى حضرة هلن ، فلنعرف دائما أن نكرر لأنفسنا ما قالوه . (١) لأننا إذا وصلنا إلى دفع اللذة كنا فى أمن من أن نرتكب من الزلل إلا أقله (ك ٢ ب ٩ ف ٥ — ٦)

نقد نظرية أرسطاليس :

لعلى فى غنى عن بسط رأيى فى هذه النظرية الفلسفية أكثر مما فعلت ، فقد بينت تاريخ نشأتها ومقدار ما لأرسطو من نصيب فى فكرة الوسط ، وفى نظرية الوسط . ولعله قد اتضح من سياق الكلام مبلغ تأييدنا لآراء أرسطاليس ، ولكن الذى لا بد من بيانه هنا هو النقط التى نخالف فيها فيلسوفنا العظيم .

وأهم هذه النقط تطبيقه نظرية الوسط على الصدق . فى ذلك التطبيق إرهاق لهذه الفضيلة ، ومد لسلطان النظرية على أرض أجنبية لا تخضع لها : فنحن نفهم أن يكون الكرم وسطا بين رذيلتين متناقضتين ، هما الإسراف والتقتير ؛ ونفهم أن تكون الشجاعة وسطا بين رذيلتين متباينتين تمام التباين ، هما التهور والجبن ؛ وندرك أن العفة وسط بين رذيلتين متنافرتين إحداهما مع الأخرى ، هما الفجور وخمود اللذات ؛ ونقبل أن يكون الحلم وسطا بين رذيلتين على طرفى نقيض ، هما الشراسة والبلادة ؛ إلى آخر الفضائل التى طبق عليها أرسطو نظريته فى الوسط ، عدا الصدق ، فإنا لا نستطيع أن نفهم أن يكون وسطا بين المبالغة فى القول ، والتحفظ والتعمية فيه . لأن للصدق دائما صورة واحدة ، وكل ما عداها ، بزيادة

مسوفاً ورأيه مسعفا ، وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره . » ويقول عبدالله بن معاوية موصيا ولده : « واعلم يابنى أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائما ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك فإنه حينئذ هواك . »

(١) يشير أرسطو إلى ما قاله شيوخ طروادة ، وقد جلسوا للفصل فى مسألة هلن ، فإنها حينما أشرقت بوجهها الوضاح على المدينة لم يسع القضاة إلا الاعتراف بفتنة جمالها ، ولكنهم مع ذلك قالوا : مهما يكن شأن جمالها فلا بد أن تعود إلى وطنها ، وإلا جلبت علينا وعلى ذريتنا النقمة والدمار .

أو بنقص ، كذب . وليس بين الطرفين اللذين يزعمهما أرسطو للصدق تباين وتناقض كذلك الذى بين كل طرفين من أطراف الفضائل الأخرى . فالزيادة فى الخير والنقص فيه متشابهان تمام التشابه من حيث حيدتهما عن الصورة الوحدة التى يتحقق فيها الصدق ، ولذلك يسمى كل منهما كذبا ، ولا كذلك أى طرفين آخرين ، فإننا لا نستطيع أن نجد اسما مشتركا يصح أن نطلقه على كل من التهور والجبن باعتبارهما حيدة عن الشجاعة ، أو على الفجور وخمود اللذات باعتبارهما حيدة عن العفة ، أو على الإسراف والتقتير باعتبارهما حيدة عن الكرم ؛ واعتبر هذا فى سائر الأطراف مع فضائلها .

وثمة خطأ آخر وقع فيه أرسطاليس ، وهو زعمه أن الصدق (وهو الوسط) أقرب إلى أحد الطرفين اللذين يكتنفانه منه إلى الآخر : فهو يزعم أن الصدق أقرب إلى التحفظ والنقص ، منه إلى المبالغة والزيادة . ولا شك أن هذا الخطأ متفرع على خطئه السابق ، وهو محاولته إخضاع فضيلة الصدق لنظرية الوسط ، والحق أن ليس الصدق أقرب إلى إحدى الرذيلتين منه إلى الأخرى ، فكلتاهما كذب لا شك فيه ، وللصدق كما قلنا صورة واحدة ، وأقل حيدة عنها بزيادة أو بنقص تلحقها بالكذب .

ولن يشترى أرسطو رضانا عن رأيه بعبارته الخلابة التى يذم فيها المبالغة ويسميها حمقا ، وزهواً ، وصلفا ، على حين يعطف على التعمية والنقص ويسميهما جنوحا إلى التواضع ، وأنفة من دواعى الشهرة ، ثم يلوح لنا بسقراط وتواضعه . لن نوافقه على رأيه ، لأن إفساد الخير بالنقص كإفساده بالزيادة ، بل ربما كان النقص فى الخير أشد أثراً فى البعد عن الصدق . ألا يكفى أن تحذف أحيانا كلمة واحدة من الخبر لتحوله إلى عكس ما يريد صاحبه ؟

وبعد فإن المقياس فى الصدق والكذب — كالمقياس فى سائر الفضائل والرذائل — هو الباعث ، فمتى تحقق الباعث على تغيير الحقيقة ، فسواء فى نظر الأخلاق أن يحدث هذا التغيير بزيادة أو بنقص .

ولو شاء أرسطو أن يكون أقرب إلى الصواب فى تطبيق نظرية الوسط

على الصدق ، لقال إن الفضائل تختلف فى قربها من الأطراف ، فبعضها أقرب إلى طرف الافراط ، وبعضها أدنى إلى طرف التفريط ؛ غير أن الصدق وحده (ولو شاء لأضاف إليه العدل) يكون وسطه بين طرفيه وسطا رياضيا ، لا أخلاقيا ، فنسبة بعده عن أحد الطرفين كنسبة بعده عن الآخر (١) .

لقد استثنى أرسطو من نظريته فى قسم الرذائل ماسماه «الشرور الذاتية» ، وخيراً فعل ؛ ولو أمعن فى تمحيص النظرية لأضاف إليها استثناء آخر فى قسم الفضائل .

نظرية الوسط عند المسلمين :

وأريد هنا أن أتكلم فى نقطتين : أولاهما صلة التعاليم الإسلامية بهذه النظرية ، قاصدا بالتعاليم الإسلامية ما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف ، والسلف الصالح ، وثانيتهما مبلغ تأثر الفلاسفة المسلمين بنظرية أرسطاليس وكتاباته .

أما التعاليم الإسلامية من قرآن وحديث فليس لدينا من شك فى أنها لم تقتبس من أرسطاليس على الرغم من أنها جاءت صريحة فى مذهب الوسط . ونحن لا نستند فى رأينا هذا إلى الرأى الدينى وحده — ذلك الرأى الذى ينزه القرآن والحديث عن النقل والاقتباس ، مما يزعمه كثير من المبشرين والمضللين ، ولكننا نعتمد كذلك على الأسانيد التاريخية التى لا تدع مجالا للشك ، إذ لم يقل قائل (حتى أولئك المفترون الذين يزعمون أن محمدا — عليه الصلاة والسلام — كان قد تلقى تعاليم التوراة والإنجيل) بأن فلسفة أرسطو أو فلسفة اليونان كانت قد عرفت سبيلها إلى جزيرة العرب إبان نزول القرآن والنطق بالأحاديث .

بقى علينا أن نعلل ذلك الاتفاق بين آراء القرآن والحديث من جهة ، وآراء أرسطو فى نظرية الوسط من جهة أخرى ؛ وتعليل ذلك واضح جلى ، هو أن كل فكر مستقيم أو دين سام يجب أن يكون تشريعه الأخلاقى والاجتماعى صادرا عن مثل هذا الرأى ، لأنه الرأى الصائب الذى لا يستقيم بغيره دين ولا عمران ، فلم يكن غريبا إذن أن نرى القرآن والحديث يأمران بالوسط ويحضان عليه ؛ بل كان يكون من الغريب المدهش ألا يفعلا ذلك .

(١) يراجع فى هذه النقطة كتابنا « فلسفة الكذب » ص ٨٩ - ٩٨

يقول الله تعالى : « وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً . » (١) — « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ، وَلَمْ يَقْتُرُوا ، وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً . » (٢) — « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ، وَلاَ تُسْرِفُوا ؛ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . » (٣) — « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ، وَالْمِسْكِينَ ، وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً . » (٤) « وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . » (٥) « وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . » (٦) « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ . وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ . » (٧)

وإن نظرة واحدة فى هذه الآيات ـ وهى قليل من كثير ـ لتكفى للدلالة على أن القرآن لم يدع إلى الحرمان ولا إلى شظف العيش ، بل دعا إلى التمتع المعقول

(١) سورة الإسراء ٢٩ (٢) سورة الفرقان ٦٧ (٣) سورة الاعراف ٣١-٣٢
(٤) سورة الاسراء ٢٦-٢٧ (٥) سورة الأنعام ١٤١ (٦) سورة النحل ٥-٨
(٧) سورة المائدة ٨٧ - ٨٨

والتوسط فى الأمور وحسبنا أننا نجد من عبارات القرآن مثل هذه الألفاظ الصريحة فى معنى النعيم : « الطيبات » و « الزينة » و « الجمال » لنفهم أنه قصد من صراحتها فى دلالتها الأخذ على يد من تسول له نفسه أن يسىء تأويلها ليخرج بها عن معناها .

ويقول الرسول الكريم : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه . فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة . » — « إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » — « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » — « كلوا واشربوا ، والبسوا ، وتصدقوا فى غير إسراف ولا مخيلة » . وامتدح قوم رجلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فى العبادة والغنى عن العمل وقالوا : صحبناه فى سفر فما رأينا بعدك يا رسول الله أعبد منه ، كان لا ينتقل من صلاة ، ولا يفطر من صيام ؛ فقال لهم : فمن كان يمونه ويقوم به ؟ قالوا : كلنا يارسول الله . قال : كلكم أعبد منه .

وعن عبد الله بن عمر قال قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « ألم أُخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قلت : إنى أفعل ذلك . قال : فانك إذا فعلت ذلك هجمت عينك ونَفِهَتْ نفسك ، وإن لنفسك حقا ، ولأهلك حقا ، فصم وأفطر ، وقم ونم »

ودخل عمر بن عبد العزيز على عبد الملك بن مروان ، وكان ختنه على ابنته فسأله عن معيشته كيف هى ؟ فقال عمر : حسنة بين الشيئين ، ومنزلة بين المنزلتين . فقال عبد الملك : خير الأمور أوساطها .

وبعد ، فما أنا بمستطيع أن أستقصى كل ما ورد بهذا الصدد ، ولكننى أرى فى هذا القدر ما يكفى . ولأنتقل إلى الكلام فى النقطة الثانية .

نظرية الوسط

بين يدى الغزالى ، وابن مسكويه ، وابن المقفع

الغزالى :

عرض الغزالى لنظرية الوسط فى مواضع عدة فى الجزء الثالث من « إحياء علوم الدين » وسأتركه هنا يتحدث عن نفسه ، ثم أتحدث عنه بعد ذلك .

يقول فى « ص ٤٩ من ذلك الجزء [١] : « والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير ، وقد أثنى الله عليه فقال : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى . (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط) وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود . قال الله تعالى : (كلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ؛ إنه لا يحب المسرفين) وقال فى الغضب (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال صلى الله عليه وسلم : (خير الأمور أوساطها) » .

وقال فى ص ٨٢ من الجزء الثالث أيضا : « اعلم أن المطلوب الأقصى فى جميع الأمور والأخلاق الوسط ، إذ خير الأمور أوساطها ، وكلا طرفى قصد الأمور ذميم » .

وقال فى الصفحة التالية : « وإذا لم يكن للإنسان خلاص من الشبع والجوع فأبعد الأحوال عن الطرفين الوسط ، وهو الاعتدال . ومثال طلب الآدمى البعد عن هذه الأطراف المتقابلة بالرجوع إلى الوسط ، مثال نملة ألقيت فى وسط حلقة نحية على النار ، مطروحة على الأرض . فإن النملة تهرب من حرارة الحلقة ، وهى محيطة بها لا تقدر على الخروج منها . فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذى هو الوسط . فلو ماتت ماتت على الوسط لأن الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التى فى الحلقة المحيطة . فكذلك الشهوات محيطة بالإنسان إحاطة تلك الحلقة بالنملة » .

---

(١) طبعة الحلبى

وأنتم ترون هنا كلاما صريحا فى الوسط والطرفين ، وكلاما صريحا فى الوسط الهندسى ، وكلاما ضمنيا لرأى أرسطاليس فى أن الفضيلة قمة صعبة المرتقى ، وكلاما صريحاً فى أن المرء قد يخطىء بألف طريقة ، ولكنه لا يصيب الفضيلة إلا بطريقة واحدة .

ثم استمع إلى الغزالى مرة أخرى ، وهو يطبق النظرية على فضيلة الحلم ص ١٤٦ من الجزء الثالث : « فقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفىء حيث يحسن الحلم . وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده ، وهو الوسط الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (خير الأمور أوساطها) » .

واستمع إليه كذلك حين يتكلم فى فضيلة السخاء ص ٢٢٥ : « فالإمساك حيث يجب البذل بخل . والبذل حيث يجب الإمساك تبذير ، وبينهما وسط هو المحمود . . . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » .

وفى هذا القدر بيان واضح لمقدار انتفاع الغزالى بالفلسفة الأرسطاليسية فى هذه النظرية ، وإن لم يكتب فيها كتابة مستقلة كما فعل ابن مسكويه . وليس يعزب عن أذهاننا أن الغزالى أحسن الربط بين رأى أرسطو والآثار الدينية الناطقة بمذهب الوسط كما رأينا .

ابن مسكويه :

ولو كان ثمة حق للنقل والترجمة ، وكان لأرسطاليس ورثة ، لألفيناهم يمسكون بابن مسكويه يقاضونه على ما أخذ من أرسطو . وفيما يأتى أوضح دليل على فضل أرسطو على هذا الفيلسوف الوراق . يقول فى ص ٣٣ ، من كتاب تهذيب الأخلاق ، (١) بعنوان « أطراف الفضائل » : « ولما كانت هذه الفضائل أوساطا بين أطراف ؛ وتلك الأطراف هى الرذائل ؛ وجب أن تفهم منها . وإن اتسع لنا الزمان ذكرناها لأن وجود أسمائها فى هذا الوقت متعذر . . اشهدوا أيها

(١) طبعة مطبعة التقدم .

القوم أن هذا كلام أرسطو بعينه ، حتى الشكاية من عدم وجود أسماء للأطراف ، تلك الشكاية التى نادى بها أرسطو كما سبق فى عبارته التى نقلناها .

ثم استمعوا إليه حين يشبه الوسط بمركز الدائرة : « وينبغى أن تفهم من قولنا ان كل فضيلة فهى وسط بين رذائل ما أنا واصفه :

« إن الأرض لما كانت فى غاية البعد من السماء قيل إنها وسط ، وبالجملة المركز من الدائرة هو على غاية البعد من المحيط . وإذا كان الشىء على غاية البعد من شىء آخر فهو من هذه الجهة على القطر . فعلى هذا الوجه ينبغى أن يفهم معنى الوسط من الفضيلة إذا كانت بين رذائل بعدها منها أقصى البعد . ولهذا إذا انحرفت الفضيلة عن موضعها الخاص بها أدنى انحراف قربت من رذيلة أخرى . ولم تسلم من العيب بحسب قربها من تلك الرذيلة التى تميل إليها . ولهذا صعب جداً وجود هذا الوسط . ثم التمسك به بعد وجوده أصعب . ولذلك قالت الحكماء : إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا تخطئها أعسر وأصعب . وذلك أن الأطراف التى تسمى رذائل من الأفعال ، والأحوال ، والزمان ، وسائر الجهات ـ كثيرة جداً . ولذلك كانت دواعى الشر أكثر من دواعى الخير . »

هذه فقرة تتحدث بنفسها عن مصدرها الأول ، ومبعث وحيها : ففيها نظرية الوسط ، والكلام عن الأطراف ، والتشبيه بالوسط الهندسى ، وكون الفضيلة قمة باعتبارها كمالا وخيرا ؛ وصعوبة سبل الخير وكثرة سبل الشر .

وكأننا بابن مسكويه ينم عن نفسه حين يقول : ولذلك قالت الحكماء « إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها » أهذا كل ماقالت الحكماء فى هذا المذهب يا ابن مسكويه ؟ . وهو لم يجُد علينا فى كل هذا البحث بإشارة أخرى إلى رأى فيلسوف . فله الله !

ثم استمعوا إليه وهو يتكلم فى الوسط الأخلاقى ، بعد أن ذكر الوسط الرياضى ص ٣٤ : « ويجب أن تطلب أوساط تلك الأطراف بحسب كل فرد فرد » . ثم يقول ص ٣٥ : « وإذ قد ذكرنا معنى الوسط فى الأخلاق وما ينبغى أن نفهم

منه فلنذكر هذه الأوساط لتفهم منها الأطراف التى هى رذائل وشرور . ، أجل بالضبط كما فعل أرسطاليس !

ثم شرع ابن مسكويه يكتب ، أو بعبارة أدق ينقل ، فى تطبيق هذا المذهب على الفضائل . فذكر أن الحكمة وسط بين السفه والبله : « وأعنى بالسفه ههنا استعمال القوة المفكرة فيما لا ينبغى وكما لا ينبغى . . . وأعنى بالبله تعطيل هذه القوة واطراحها . » . . . الخ

« وأما الشجاعة فهى وسط بين رذيلتين : إحداهما الجبن والأخرى التهور ، أما الجبن فهو الخوف مما لا ينبغى أن يخاف منه ، وأما التهور فهو الإقدام على مالا ينبغى أن يقدم عليه . »

« وأما العدالة فهى وسط بين الظلم والانظلام »

وبعد فقد قال الصاحب بن عبّاد فى سعيد بن حميد : « لو قيل لكلماته انفرى إلى أصحابك ، لما بقى له شىء . » ، وأنا أقول : لو قيل لكلام ابن مسكويه : اذهب إلى صاحبك ، لما بقى له شىء .

ابن المقفع :

أما ابن المقفع فله معنا شأن آخر ، فلا هو كتب عن النظرية كما كتب ابن مسكويه ، ولا هو طبقها وربطها بالآثار الدينية كما فعل الغزالى ، وإنما نرى اقتناعه بهذه النظرية ناطقا فى حكمه التى ضمنها « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » . وليس لدى أدلة قاطعة على أنه انتفع بكتابة أرسطو ، ولكننى مع ذلك أسمع فى كثير مما كتب صوت الفلسفة اليونانية والرومانية يتردد عالياً . وحسبى هنا أن أنقل بعض عباراته الدالة على شدة اعتناقه مذهب الوسط .

فى الأدب الصغير :

يقول فى ص ٢٧ « اقتصاد السعى إبقاء للجهام ، وفى بعد الهمة يكون النصب . ومن سأل فوق قدرته استحق الحرمان . وسوء حمل الغنى أن يكون عند الفرح مرحا ، وسوء حمل الفاقة أن يكون عند الطلب شرهاً . »

ويقول فى ص (٦٥) : « وكان يقال : قارِبْ عدوك بعض المقاربة ، تنل

حاجتك ، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترىء عليك عدوك ؛ وتذل نفسك ، ويرغب عنك ناصرك . ومثل ذلك مثل العود المنصوب فى الشمس ، إن أملته قليلا زاد ظله ، وإن جاوزته الحد فى إمالته نقص الظل . » وأشهد إن هذا لتصوير بديع .

ويقول فى ص ٢٠ : « وعلى العاقل — مالم يكن مغلوبا على نفسه — ألا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه فى أمره ، وساعة يُخلى فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ؛ فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر ، وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها وفضل بُلغَة . »

واستمع إليه حين يقول ص ٢٠ — ٢١ : « وعلى العاقل ألا يكون راغباً إلا فى إحدى ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم . »

ويقول فى موضع آخر ص (٥٨) : « لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجد من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظّه من الدنيا بصرُه بزوالها .

فى الأدب الكبير :

يقول فى ص ٤ — ٥ : « فأصل الأمر فى الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدى الفريضة ، فالزم ذلك لزوم من لا غناء له عنه طرفة عين ، ومن يعلمُ أنه إن حرمه هلك . ثم إن قدرت على أن تجاوز ذلك إلى التفقه فى الدين والعبادة ، فهو أفضل وأكمل . » ونحن هنا نرى ابن المقفع يصور لنا الفضيلة قمة صعبة المرتقى ، أو مثلا أعلى بعيد الحصول ، ثم يدعونا إلى محاولة الوصول إليه ، ولكن بعد أن وضع لنا حدا أدنى ، إن تجاوزناه كنا فى حدود الرذيلة .

ثم يقول : « وأصل الأمر فى صلاح الجسد أن لا تحمل عليه من المأكل والمشرب والباه إلا خفا . ثم إن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك كله فهو أفضل . »

« وأصل الأمر فى البأس والشجاعة ألا تحدث نفسك فى الإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم . ثم إن قدرت على أن تكون أول حامل وآخر منصرف

ـ من غير تضييع للحذر ـ فهو أفضل . » أجل من غير تضييع للحذر ، فهذا هو الوسط السعيد .

ويقول ص ١٥ ـ ١٧ : « لا تتركن مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيرا ، ولا تلزمن نفسك مباشرة الصغير ، فيصير الكبير ضائعا » .

« واعلم أن مالك لا يغنى الناس كلهم فاخصص به أهل الحق ، وأن كرامتك لا تطيق العامة كلها ، فتوخ بها أهل الفضل ، وأن قلبك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك ـ وإن دأبت فيهما ، وأن ليس لك إلى إدامة الدأب فيهما سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما ـ فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك . »

« واعلم أن ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بك فى المهم ، وما صرفت من مالك فى الباطل فقدته حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضر بك فى العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك فى غير الحاجة أزرى بك عند الحاجة منك إليه . »

وإليكم ما يقول ابن المقفع صريحا فى البشاشة ص ٢٠ : « لا تكونن نزر الكلام والسلام ، ولا تبلغن بهما إفراط الهشاشة والبشاشة ، فان إحداهما من الكبر والأخرى من السخف . » ألم يذكر لنا هنا الوسط الحميد ، وطرفيه البغيضين ؟

ثم استمعوا إلى رأيه فى البشاشة فى موضع آخر ص ٧٦ : « اعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة ، وأن تقربك إليهم يكسبك صديق السوء »

وها هوذا يصور لك الأطراف فى صورها الذميمة ، إذ يقول ص ١٠٦ ـ ١٠٧ « واعلم أنك إن جاوزت الغاية فى العبادة ، صرت إلى التقصير ؛ وإن جاوزتها فى حمل العلم ، لحقت بالجهال ، وإن جاوزتها فى تكلف رضا الناس والخفة معهم فى حاجاتهم كنت المحتقر المضيع »

وآخراً وليس أخيراً أنصت إليه حين يقول ص ١٠٧

« اعلم أن بعض العطية لؤم ، وبعض السلاطة غم ، وبعض البيان عى ، وبعض

الحلم جهل ، فان استطعت أن لا يكون عطاؤك جوراً ، ولا بيانك هذراً ، ولا علمك وبالا ، فافعل . »

خاتمة :

ويمكننا أن نلخص رأينا بإيجاز فيما يأتى :

١ — أن فكرة الوسط وليدة العقل المتزن ، والرأى الحصيف منذ كان على الأرض فلسفة .

٢ — أن أرسطو هو صاحب الفضل ، لاينازعه فيه منازع ، فى ابتكار نظرية الوسط وتفريعها وتدوينها ، والسمو بها إلى تلك المرتبة العلمية الدقيقة .

٣ — أن ما جاء فى القرآن والحديث ، بل فى كلام كل من ثبت عدم اتصاله بفلسفة أرسطو ، ليس إلاصدى لوحى الفكر السامى ، والرأى السديد فى وجوب الأخذ بفكرة الاعتدال والتوسط .

٤ — من الثابت أن فلسفة أرسطو قد نقلت للمسلمين مع غيرها من فلسفة اليونان فى العصر العباسى ، وقد تتلمذ فلاسفة المسلمين على هذه الفلسفة — وفى كثير من الأحيان لم يزيدوا شيئا عليها . وكلامهم فى نظرية الوسط ، من غير شك ، نقل وإعادة لما كتب أرسطو .

٥ — قد رأينا أن الغزالى أحسن الانتفاع برأى أرسطو ، ونسج حوله خيوطا من تعاليم الإسلام أظهرت له ديباجة جميلة .

٦ — أما ابن مسكويه فقد كان ناقلا غير متصرف .

٧ — وأما ابن المقفع فمن المحتمل أن يكون قد تأثر بالفلسفة اليونانية عن طريق لغته الفارسية ، كما أن من المحتمل أن يكون قد ردد ما ثقفه فى الإسلام . كما أن من المحتمل أن يكون مُصدرا فى فكرة الوسط عن رأيه وعقله ، وهو ذو الفكر العميق ، والعقل العظيم ، أو لعله أن يكون لذلك كله أثر فى فلسفته ،

محمد مهدى علام